على حد منكب

للاستاذ محمود محمد شاكر

قلت قديماً فى الرسالة إن الشيخ إبراهيم اليازجى ومن لف لفه كالعلم الشرتونى ، هم أصحاب حشد وتخليط فى جمع اللغة . وآفة الحشد والاستكثار ترك التبصر ومجافاة التمحيص . ثم يأتى الناس بعد ذلك فيأخذون هذا الحشد على ثقة وأمن ، فتزداد بلبلة الناس فى شأن اللغة . فما كل أحد يصبر على تتبع الكلام المبثر فى الشعر والنثر ، ثم جمعه وتأليفه ، ثم النظر فى أصوله ومبانيه ، ثم تمحيص المعانى المختلطة ورد كل قرينة منها إلى أختها

وقد قرأت فى عدد الرسالة (٩٠٨) مانقله الأستاذ محمود أبو ريه من كتاب نجعة الرائد لليازجى:(هو منه على حد منكب: أى منحرف عنه دائم الإعراض) وما عقبت به الرسالة من قول أقرب الموارد : (وفلان معى على حد منكب : أى كلما رآنى التوى ولم يتلقنى بوجهه ، وهو كقولهم : فلان يلقانى على حرف). وأستطيع أن أوضح لليازجى والشرتونى فى هذا الموضع مكان العذر ، فقد نقلا ، ولكنهما لم ينخلا الكلام ولم يمحصاه . والذى أوقعهما فى هذا الوهم ، هو حب الاستكثار ، ثم اطمئنانهما إلى شيخ قديم كان من أئمة العربية ، ولكنه كان أيضاً عريض الدعوى ، جريئاً على التوهم ، كثير التخليط فى اجتهاده ، بل كان يدلس فيما يكتب ، إذ كان يأتى بالشىء يوهمك أنه مما نقله عن الرواة قبله ، وهو فى الحقيقة مما اخترعه بسوء رأيه وقلة معرفته بشامخ كلام العرب — ولا أعنى غريبه ، فهو كان قيما بالغريب حفظاً ونقلا . وهذا الشيخ القديم هو الخطيب التبريزى شارح الحماسة . ويدل شرحه للحماسة على ما ذكرت من صفته ، وعلى شىء آخر ، هو ضعفه الشديد فى فهم دقائق الشعر العربى . ثم على شىء آخر أيضاً ، هو أنه مشغول بالنحو وما إليه وبالإعراب فى بيان وجوهه المختلفة . وهذه الكلمة التى نقلها اليازجى والشرتونى عنه ، هو صاحبها ، وهو مدعى هذا المعنى لها ، ولم ترد فى شعر قديم ، ولا نثر معروف ، على الوجه الذى توهمه التبريزى واحتال له . وإنما أتى الشيخ من سوء فهمه لما تولى شرحه من شعر الحماسة

جاءت الكلمة فى شعر للبعيث بن حريث بن جابر الحنفى ، أحد بنى الدؤل بن حنيفة بن لجيم ... بن بكر بن وائل ، وهى أبيات جياد مختارة ، يذكر فيها طروق طيف صاحبته على بعد الزيارة ، ثم مسيره فى البلاد ، ثم يفخر بنفسه وبمحاماته دون عشيرته وذبه عن مآثرها ومجدها ، يقول فى مطلعها

خيال لأم السلسبيل ودونها ... مسيرة شهر للبريد المذبذب!

حتى يفخر بما فعل فى نصرة رجلين من قومه هما (يزيد) و (عبس) ، كانا استصرخا به فى ملمة من ملمات الحروب ، فنصرهما وحامى عنهما ، واستنقذهما ، وهم يومئذ جميعاً فى غربة عن ديار عشيرتهم ، قال البعيث فى ذلك

وإن مسيرى فى البلاد ومنزلى ... لبا لمنزل الأقصى إذا لم أقرب

ولست ، وإن قربت يوماً ببائع ... خلاقى ولا دينى ابتغاء التحبب

ويعتده قوم كثير تجارة ... ويمنعنى من ذاك دينى ومنصبى

دعانى يزيد ، بعد ما ساء ظنه ، ... وعبس ، وقد كانا على حد منكب

وقد علما أن العشيرة كلها ، ... سوى محضرى ، من خاذلين وغيب

فكنت أنا الحامى حقيقة وائل ... كما كان يحمى عن حقائقها أبى

ويظهر لى أن البعيث كان قد خرج هو وصاحباه (يزيد وعبس) إلى خراسان فى ولاية أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، ومن أجل ذلك قال : « ومن دونها مسيرة شهر للبريد المذبذب »

قال التبريزى فى شرح البيت : « أى أشرفا على الهلاك . هذا إذا رويت بفتح الكاف . يقال : أصابه نكب من الدهر ومنكب ونكبة ونكوب كثيرة . ومنه حافر نكيب ومنكوب: إذا أثر فيه حجر أو غيره . ويروى (على حد منكب) بكسر الكاف . يعنى أنهما كانا مهاجرين له . يقال : فلان معى على حد منكب : أى كلما رآنى التوى ولم يتلقنى بوجهه . وتنكب عنى : أى اجتنبنى . والمنكب من كل شىء جانبه وناحيته . ومثله قولهم : فلان يلقانى على حرف . وفى القرآن « ومن الناس من يعبد الله على حرف » . ويجوز أن يريد بقوله : (بعد ماساء ظنه) بعد تسلط اليأس والقنوط من الحياة »

والذى حمل التبريزى على التفسير الذى اجتهد فيه ، وادعى فيه دعوى ليس عليها بينة من نفس الشعر ، ولا من كلام العرب، بعد أن قارب المعنى الصحيح فى الشعر بقوله « أى أشرفا على الهلاك » — أنه أتى من سوء فهمه الذى بدر إليه فى معنى قوله : « دعانى يزيد بعد ما ساء ظنه وعبس » فتوهم أنه أراد (بعد ماساء ظنه فى) ، ثم ازداد فى توهمه فزعم فهاجرة كانت بين البعيث وصاحبيه عبس ويزيد ، لكى تتسنى له المداخل إلى دعواه فى تأويل الكلام على وجه توهمه واخترعه ، ثم أثبته بقوله « يقال : فلان « معى على حد منكب » . وهو شىء لم يقله غير التبريزى نفسه، بالمعنى الذى فسره به ، وكان من حيرته أن عاد فى آخر شرحه يقول : « ويجوز أن يريد بقوله (بعد ما ساء ظنه) أى بعد تسلط اليأس والقنوط من الحياة » ، كأن الأول الذى فهمه هو الصواب وكأن هذا الثانى جائز على عريض .

وأخطأ التبريزى فيما فهم من قول الشاعر (ساء ظنه) ، وأخطأ أيضاً فى هذا التفسير الذى قال إنه (يجوز) أن يكون من وجوه تأويلها . فالعرب حين تأتى بقولها (ساء ظنه) فى مثل هذا الموضع ، إنما تريد بالظن : ذميم الخواطر التى تخامر نفس المحارب حين يحمر البأس ، إذ يحدث نفسه بالهرب والفرار حبا للحياة وحرصاً على الأحوال ، فيرتكب أخلاق اللئام والأنذال والجبناء فى ترك المحاماة عن الأعراض مخافة الموت المطبق . فمن ذلك قول أشابة بن سفيان البجلى

ومستلحم يدعو ، وقد ساء ظنه ، بمهلكة ، والخيل تدمى نحورها
كررت عليه ، والجياد كأنها قنا زاعبى ، لم تثنها فطورها
فنهنهت عنه أول الخيل ، إننى صبور ، إذا الأبطال ضج صبورها

والمستلحم : من قولهم : استلحم (بالبناء للمجهول) أى روهق فى القتال ، واستوحشه العدو من هنا وهنا . فهو يدعو بأسم عشيرته ، وقد حدث نفسه بالفرار . وهذا البيت هو نفس معنى بيت البعيث . إلا أن هذا قال : « بمهلكة » ، والآخر قال: « وقد كانا على حد منكب » بفتح الكاف . وهو أيضاً ما قاله التبريزى أولا ، ثم أخذه حب الاجتهاد ، فظن ظنا خطأ جعله رواية للبيت ، بكسر الكاف ، ثم توهم وتصنع الاجتهاد ، ثم ادعى ما ادعى

بل لقد قال عروة بن الورد يتمدح بنصرته قومه (بنى عوذ) حين اشتد القتال عليهم بمادان فقال :

تدارك عوذاً ، بعدما ساء ظنها ،
بمادان ، عرق من أسامة أزهر

يعنى نفسه حين تصرم، وقد أوشكوا أن يفروا عن أعدائهم.

ويقول موسى بن جابر الحنفى (عم البعيث صاحب الأبيات المذكورة آنفاً)

وجدت بنفس لا يجاد بمثلها
وقلت : اطمئنى ، حين ساءت ظنونها
وما خير مال لا يقى الذم ربه
بنفس امرئ فى حقهـا لا يهينها

أى حين خطر له أن يفر من حومة القتال

هذا أول سوء قصد التبريزى إلى المعانى . أما ثانيهما فما استخفه من الفرح باجتهاده ، حتى عجل فلم يقف على كلمة « حد » ولم يحاول أن يفهمها ، إلا على الوجه الذى بدر إلى عقله ، وهو الحد الفاصل بين شيئين . بيد أن العرب تقول : « حد الظهيرة » و « حد المطر » و « حد الخمر » و « حد الموت » وكثير من مثل ذلك ، وتعنى بالحد الشدة والبأس والصلابة والعنفوان . وقد قال موسى بن جابر الحنفى فى أول كلمته التى ذكرناها آنفاً

ألم تريا أنى حميت حقيقتى
وباشرت حد الموت ، والموت دونها

وقد روى هذه الأبيات أبو تمام فى حماسته ، وشرحها التبريزى نفسه ، فشغله الاجتهاد فى إعراب « دونها » مرفوعة، عن تمحيص العبارة ، وعن الوقوف على معنى « حد الموت » ، وفر إلى النحو والعروض يسود الصحف بوجوه تأويلها . ونسى أن يفسر « حد الموت » ، وهى سورته وشدته وتلهبه فى المعترك وهذا هو المعنى الذى جاء فى قول البعيث « حد منكب » : أى سورة النكبة وشدتها فى القتال ، ولم يعن الحد الفاصل بين شيئين

وأما ثالث الثلاثة . فإنه عجل كعادته ولم يتثبت من معنى « على » فى قوله « على حد منكب » فمعنى « على » فى مثل هذه العبارة ينظر إلى معنى « فى » أو « عند » ومن ذلك قول الحطيئة :

وإن قال مولاهم، على جـــل حادث

من الدهر: ردوا فضل أحلامكم، ردوا

أي عند حادث جليل ينزل بهم. وكذلك قول الفرزدق

على ســـاعة، لو كان في القوم حاتم

على جوده، ضـــنت به نفس حاتم

أي: في ساعة شديدة، لو شهدها حاتم لضن بالماء على أصحابه

ورحم الله إمام العربية شيخنا الرصفي، فإنه لم يعرج على سوء فهم التبريزي واستطالته في الدعوى، وقد قرأت عليه أبيات البعيث هذه أيام قراءتي عليه شرحه لحماسة أبي تمام. وقد جاء في المطبوع من شرحه عند ذكر هذا البيت: «على حد منكب» بفتح الكاف، مصدر ميمي من نكبه الدهر ينكبه بالضم نكباً: أصابه بنكبة. يريد، وقد أرهقهما العدو فبلغ منهما كل مبلغ»

هذا، ومعنى الأبيات الثلاثة الأخيرة. أن عيسا ويزيد حين حمي القتال، حدثتهما نفسهما بالفرار وهما في سورة نكبة كريهة مستأصلة، فدعوا — كعادة العرب في الاستغاثة والتداعي عند القتال — فقالا «يآل بكر بن وائل»، وقد عجلا فظنا أنهما يدعوان عشيرتهما، وبينهما وبين العشيرة «مسيرة شهر للبريد المذبذب»، إذ كانوا في خراسان كما قلت آنفاً، لا في ديار قومهما وكانت هذه الدعوة وســـوسة من وساوس النفس الأمارة، فالعشيرة كلها كما يعلمان، علما ليس بالظن، غائبة بعيدة، والقليل الذي حضر منها خاذل لها مشغول بنفسه، إلا أنا، فإني حاضر لم أغب، وإذا دعيت فلا أخذل من دعاني. فإذا دعوا فقالا «يآل بكر بن وائل» فهما لم يدعوا أحداً سواي أنا وحدي

فكنت أنا الحـــامي حقيقة وائل

كما كان يحمي عن حقائقها أبي

فالبيت الثاني «وقد علما أن العشيرة كلها» بيان واعتذار عن كذبه في قوله: «دعاني يزيد ... وعبس» وهما لم يدعواه باسمه هو، بل هتفا باسم عشيرتهم «بكر بن وائل» ومن أجل هذا المعنى قال البيت الأخير الذي بلغ به غاية الفخر بنفسه، وحق له. فقد كان سيداً شريفاً شاعراً، وكان أبوه حريث سيداً شريفاً شاعراً، وكذلك كان سائر أعمامه وبني أعمامه.

وفي البيت رواية أخرى جادلت عنها كتبي في هذين اليومين، فلم أهتد إليها لطول الترك والنسيان. وهي «وقد كانا على حز منكب». أي في ساعة نكبة شديدة. والحز والحزة اليسير من الوقت، لأنه من معنى الحز وهو القطع. يقولون: «على أي حزة أتانا فلان!» أي في أي وقت ضيق حرج أتانا! ويقولان: «جئتنا على حزة منكرة» أي في ساعة منكرة شديدة. «وكيف جئت في هذه الحزة؟». ويقول أبو ذؤيب، يذكر جفاف الماء في شدة الحر، وانقطاعه حين لا يطاق الصبر عنه

حتى إذا جرزت مياه رزونه،

وبأي حز ملازة تتقطع!!

يقول: في أي ساعة منكرة شديدة ينقطع الماء، حين لا يستطاع الصبر عنه! فهذه الرواية تؤيد تفسيرنا، وتنفي عنه تحريف التبريزي وانتحاله واختراعه واجتهاده. وأرجو أن يفسح لي القارئ العذر في الإطالة، كما أفسح الناس لتخليط التبريزي والناقلين عنه.

محمود محمد شاكر

(الرسالة)

علقت بذهني هذه العبارة من شعر البعيث منذ قرأنا الحماسة على أستاذنا الرصفي - وشيخنا رحمه الله قد أخذ برواية الفتح ولم يتعرض لرواية الكسر. وإني على اعتراف بما في رأي صديق الأستاذ محمود محمد شاكر من سداد وقوة أجد من الصعب أن نرى التبريزي بالاختلاق في اللغة والتقول على العرب، فربما نظر في كتابات لم ننظر فيه، ووقع على نص لم نقع عليه

الزيات